ترجمة

أحمد رائف

على هامش

محاكمات نورمبرج

مجرمو الحرب والتعذيب في ظلال المشانق

تأليف الدكتور

ج.م. جيلبرت

الزهراء للإعلام العربي



تقديم

« بقلم السير دافيد ماكسويل فايف نائب رئيس الادعاء من الجانب البريطاني في محاكمات نورمبرج » .

كان من أهم الأسباب التي دعت لمحاكمات « نورمبرج » ذلك الكم الهائل من الأعمال البشعة الرهيبة التي ارتكبها النازيون ، وما كان فيها من قسوة وجرائم تثير الفزع والرعب في القلوب عند ذكرها .

وعقب الحروب في العادة تنتشر نوبة من الفتور العام ، وعدم الاكتراث لمثل هذه الأمور ، على اعتبار أن الجرائم التي كشفت عنها التحقيقات ليست سوى دعاية من صنع الأعداء ، وتبدو تلك الفظائع في نظر البعض ضربًا من الأساطير التي يبالغ أصحاب المصلحة في صنعها والحديث عنها ، ولن نعدم بعض المؤرخين « الاعتذاريين » الذين يؤكدون أن مثل هذه الحقائق ليست سوى شائعات ، ويرددون هذا دون سند علمي صحيح ، وكأنهم يحاولون طلاء التاريخ وطمس معالم الحوادث .

ولكن في هذه الحالة فالأمر يختلف ، فلدينا براهين كثيرة وأدلة دامغة على الجرائم « النازية » ، وهذا مما وقع تحت أيدينا من سجلات الأوامر اليومية ، والخطب المسجلة والمكتوبة ، ومحاضر الجلسات التي تركت كل من اطلع عليها في حيرة شديدة .

والكل يتساءل عن طبيعة هؤلاء البشر الذين سمحوا بإعدام وإبادة حوالي اثني عشر مليونًا من الرجال والنساء والأطفال ، في بساطة وهدوء دون شعور بالإثم ، ناهيك عن الملايين الأخرى التي سفكت دماؤها في ساحة المعارك من الشعوب المختلفة .

ولا شك في أن خطورة الأحداث وتواليها والضغوط الاقتصادية والسياسية كانت من الأسباب الرئيسية لارتفاع الحزب النازي إلى مركز القوة وتسلمه مقاليد الحكم ، ولا يمكن بأي حال تجاهل كل تلك المؤثرات التي أدت إلى هذه النتيجة التي تحمَّل العالم كله وزرها وأثرها .

ومن الصعب علينا أن نتجاهل حالة الشعب الألماني ككل ، وصعب أيضًا تجاهل نفسية القادة النازيين بشكل خاص ، كما كان للعناصر البشرية التي اشتركت في تسيير الحكومة الأهمية الحيوية البالغة في السير بالأحداث إلى ما وصلت إليه . ولعل ظاهرة تولي عصابة للحكم في أمة من الأمم ، مرتفعة من العدم إلى أعلى سلطة حيث لا ينافسها منافس ولا يعارضها معارض ، وحيث تمسك بالأمور بقبضة حديدية ، وتحكم حكمًا فاسدًا استبداديًا ــ تحتم علينا التأمل والدراسة المتأنية الواعية .

وها قد انقضى من الوقت ثلاث سنوات منذ أن انتهت سيطرة النازيين على القارة الأوروبية من **جبال القوقاز** إلى **جبال البرينيز** ، ورغم هذا فالعالم لم ينته بعد من مظاهر الديكتاتورية وأساليبها المختلفة ، وتحكمها في كثير من دول العالم .

وهذه حقيقة واقعة يصعب تجاهلها .

لذلك فإنه يجب أن ننظر عن قرب للتعبير الإنساني لفسقهم البالغ . وهذا الكتاب يبين ردود الأفعال البسيطة للقادة النازيين عندما كانوا يحاكمون وهم يواجهون احتمال الحكم عليهم بالإعدام . ولعل تعمقنا في نفسياتهم يبدو أكثر أهمية وقيمة عندما نعلم أن الذي يقدم عريضة الاتهام هو تاريخ العالم .

وإن يقيني أن هذه المسألة ليست أكاديمية الاهتمام ، وينبغي أن نذكر أن كثيرًا

من الناس لم يتناولوا « **النازية** » تناولاً جادًا قبل الحرب ، ولم ينظروا إليها بعمق إذ لم تعن وقتها شيئًا خطيرًا على نحو من الأنحاء .

فالفرنسيون مثلاً قد اعتبروا كتاب « **كفاحي** » كتابًا ضئيل الأهمية ولا قيمة له ، قد كتبه مخبول في قبو سجن تحت ظرف نفساني قاس ، وذلك أنهم قوم ذوو ثقافة عالية وأدب رفيع ، ومن ثم فقد نظروا إلى الكتاب من حيث قيمته الأدبية ، فوجدوا بنيانه هزيلاً قد ملئ بأخطاء اللغة وقواعد النحو ، ولم ينتبهوا إلى هذا الكتاب التافه في زعمهم . ثم كان خطؤهم الشنيع عندما قدروا أن الألمان مثلهم متذوقون للثقافة وأصحاب منطق عميق واضح .

وكذلك كان حال البريطانيين ، الذين اعتقدوا أن أمة حديثة في هذه المرحلة من الحضارة لا يمكن أن تدمرها مثل تلك الأفكار التي وردت في كتاب « كفاحي » لهتلر .

والآن وبعد أن انتهت الحرب فإن كثيرًا من الناس ينظرون إلى تسنم النازيين سنام القوة على أنه أمر خارج عن المألوف وغير طبيعي ، بل ولا يمكن حدوثه خارج ألمانيا .

وكم تحطمت كثير من الدول الأوربية بسبب القلق الأخلاقي والتمزق الذي كان نتيجة طبيعية لظهور الديكتاتورية . وليس هنا مجال لمناقشة أوضاع كأوضاع الحكومة السوفيتية ، ولكن لابد أن أقول إن المعلومات التي حصلنا عليها من الدول الأوربية التي وقعت تحت نير الاحتلال السوفيتي تؤكد ازدراءهم لحكم القانون وسيادته والاعتماد الكامل على الأسلوب البوليسي في الحكم كما كان النظام النازي بالضبط ، وهو أمر يهدد أي مجتمع بالفناء .

وإذا أردنا أن نُقيِّم الديكتاتورية وكيف ظهرت ، وكأنه بمثابة اختبار للديمقراطية الغربية في الوقت نفسه ، فإن هذا يحفزنا ويدفعنا لدراسة المعدن البشري للنازية .

وقد أفاد المؤلف في دراسته النفسية عن القادة النازيين أن الحالات التي قدمت

إلى المحكمة كانت فريدة ومتميزة ، فقد وقفوا في قفص الاتهام بعد أن تحطم كل شيء فوق رءوسهم ، وكان لديهم الوقت الكافي للنظر في الماضي ، ثم رأوا بأنفسهم النتائج التي أدت إليها أعمالهم .

وكانت حياتهم الشخصية تتكشف كل يوم أمام المحكمة ، ومن ثم فقد كانت أمامهم الحوافز الكثيرة ليتذكروا الماضي بتركيز ، وكانت إجاباتهم واضحة لكثرة الشهود والأدلة أثناء المحاكمات .

وفي هذا الكتاب لن نرى فقط الصراع والتباين والعداوة بين هؤلاء الذين قادوا بلادهم إلى الدمار ، ولكننا أيضًا سوف نرى الجانب الأخلاقي الذي غاب في تلك الفترة ، وكيف أدى بهم ذلك إلى مهاوي السقوط والانحدار .

وكانت ردود أفعالهم تجاه الاتهامات المقامة ضدهم تثير الاهتمام بوجه خاص ، فالمحكمة لم تتشدد معهم بالفعل ، ولم تعاملهم بقسوة ، بل جعلت الأمور هادئة في نظرهم ، مما جعل « جورنج » يصر على وضعه الاستعراضي الذي كان يثير السخرية ، وكان يقول : « المنتصر هو القاضي دائمًا ، أما المنهزم فتكثر ضده الاتهامات والادعاءات » أما « شترايخر » فقد قال في هدوء :

ـــ « هذا انتصار لليهودية العالمية » .

وربما يكون تعقيب الأدميرال « دونيتز » هو أكثر التعقيبات غرابة ، فقد قال : « لا تعنيني هذه الاتهامات في قليل أو كثير » .

ولكنه قال فيما بعد :

ـــ « دعك من أسطورة هتلر هذه التي تتكلم عنها ، فعندما يعلم الألمان بما قيل في المحاكمة فلن تجد نفسك مضطرًا لبذل جهد في إثبات إدانته فهو قد أدان نفسه » .

وهذه الملاحظات تلقي الضوء بالتأكيد على نفسية هؤلاء الرجال الشواذ الذين

انعدم عندهم الشعور والإحساس ، ولم يدركوا من هذا العالم غير ذواتهم الوضيعة التي ملئت زهوًا وخيلاء .

وقد أظهرت اختبارات الذكاء التي أجراها المؤلف للمتهمين أن جميع القادة النازيين ــ باستثناء شترايخر ــ كانوا في درجة من الذكاء تفوق المتوسط ، وعلى أي حال يجب ألا نفسر وصولهم إلى السلطة بسبب ذكائهم فقط ، فهناك خصائص أخرى بالتأكيد .

وقد وصلت إلى نتيجة تبينتها بنفسي خلال المحاكمة أن المحرك الأساسي لهم ، وتلك القوة الظاهرة قد تأتت من القسوة المتناهية وشهوة السلطة والرغبة في التحكم وعبادة ذواتهم ، وهي أمور قد تتأتى لبعض الناس عندما يتعرضون لمثل هذه الظروف ، وعندما يفقدون صفة هامة منطقية تميز الإنسان وتجعله منضبطًا في نظرته للأمور ، وقد تم لهم هذا تحت تأثير تعصب مذهبي انتشر وتمكن منهم .

هؤلاء الرجال الغامضون متوسطو الأعمار الذين وصفهم « مايكل سكوت » في كلمات :

« أنانيون .. متغطرسون .. متسلطون .. قد استمدوا قوتهم من عقلية تفردت عبر خبرات غامضة لا يعرفها سواهم ، أنتجت هوسًا وولعًا وتعصبًا للنازية ، مما أوجد شعورًا متسلطًا متجهًا إلى القسوة والشر ، ثم نشرت تأثيرًا عامًا على أفراد مختلفين قد تباينوا في هذه الدرجة من التأثر والشذوذ .

وعند اختبارات الذكاء كانت ردود الأفعال الشخصية مثيرة عند المتهمين . فعندما وضع الاختبار أمام « جورنج » عاد ثانية لخيلائه وزهوه .

ورغبة « جورنج » عارمة ليستعرض ذكاءه وتفوقه على الآخرين .

والمنافسة واضحة بين المتهمين منذ بداية المحاكمة ، وزادت حدتها مع قرب نهايتها .

ولم يتورع « جورنج » عن إظهار احتقاره الكامل للآخرين .

وحرص القادة العسكريون على تهوين دورهم في الفظائع النازية التي حدثت وظهرت تفاصيلها أثناء المحاكمات . بينما حاول كل من القادة السياسيين أن يلقي بالتبعة على غيره من الآخرين .

وقد ظهرت سطوة « جورنج » وسيطرته من خلال شخصيته القوية وشجاعته المؤكدة ، ومن إعلانه الكامل لتحمله مسئولية السياسة النازية كاملة .

وقد كان بكل تأكيد أكثرهم إصرارًا على موقفه القديم .

أما « فرانك » الذي أعلن توبته فقد كان يحاول النيل من المتهمين من زملائه ، وكان يستعلي ويسمو فوقهم بتوبته وعودته إلى المسيحية وليس كنازي .

ولم يهتم بقية المتهمين بسطوة « جورنج » وسيطرته ، بل كانوا يصفونها بأنها ضرب من ضروب النذالة لم يعرف من قبل . في الوقت الذي شاعت فيه قصة نهبه لكنوز التحف الأثرية الثمينة من البلاد المحتلة وعرفت تفاصيلها أثناء المحاكمات .

وكان جميع المتهمين باستثناء « سبير » ممتلئين شهوة إلى القوة والخيلاء ويملؤهم الزهو الجامح ، وقد أدينوا جميعًا في شخص « جورنج » .

وكانت نتيجة الاختبارات تتشابه في ردود أفعالهم النفسية بوجه عام .

وقد ظهر « جورنج » في المحاكمات كأكبر لص للتحف ، وخدش غروره حيازته لهذه الكنوز التي سرقها ، وكان بالتأكيد أكثرهم فسادًا لنفوذه القوي الذي استغله أسوأ استغلال .

وكان « جورنج » قد أهمل سلاح الطيران الألماني بعد معركة بريطانيا ، ومن ثم بدأ يفقد تأثيره على « هتلر » .

وبينما كان مواطنوه وبقية الأوربيين يعانون من ويلات الحرب كان يعيش منعمًا في قصره ، معربدًا في ملابسه الغالية المرصعة بالذهب والجواهر وكأنه أحد أباطرة الرومان .

وكانت غاية متعته عندما يدعو ضيوفه إلى مآدب مسرفة البذخ والنعيم ، ثم يرافقهم متجولاً معهم في قصره ليريهم كنوز التحف المسروقة التي يستحيل وجودها مجتمعة في مكان واحد آخر .

وهو مثل واضح لخطورة الديكتاتورية وتعفنها وفسادها ، وهذه صورة لحياة الرجل الثاني في **الرايخ الثالث** .

لهذا كان « سبير » يقول :

ــ « إنها لمعجزة أن يعيش عضو قيادي في الوزارة بطريقة بسيطة متواضعة » ومع تصاعد شدة الحرب وانتشارها انعزل « هتلر » عن الناس ، ولم يعد يعرف ما يدور بينهم ، وانعزل معه رجاله عن واقع الأمة ، ولم يعودوا يعرفون شيئًا إلا من خلال كم هائل من التقارير الكاذبة المزيفة ، والتي كتبها عدد من الكذابين المزيفين لتأكيد مصالحهم وأهميتهم ودورهم ، وأنه لا حياة للنظام بدونهم ، ومن ثم تبرز أهمية دورهم في تلك الآلة الجبارة التي لا تتوقف عن الدوران .

ولم يكن « هتلر » بالرجل الذي يختار مرءوسيه بذكاء ، ولم يعد يهتم بالتأكيد على التنسيق بين المسئولين السياسيين في حكومته ، ولعله قد فقد القدرة على ذلك . ولم يعد هؤلاء يعملون كفريق متجانس متعاون فيتمكن من الأخذ بنصيحتهم ويستفيد من تجاربهم .

وقد كان هدف « الفوهرر » الأول هو تحطيم الاتصال بين الأفكار والتجارب التي تحتويها قيادة النظام الديمقراطي ، مما يستحيل معه الحصول على نظرة دقيقة واضحة داخلية للميادين المختلفة المتأثرة بالسياسات الجديدة .

وقد قال « كايتل » في هذا الكتاب :

ــ « إني أستطيع أن أدرك الآن بوضوح تعمده ــ أي هتلر ــ في أن يشغل وزراءه ورؤساء أركانه بمصالحهم الخاصة ، حتى صار كل واحد منهم لا يدري على وجه التحديد دوره في خطط « هتلر » الرئيسية » .

ليس في تاريخ الطغيان غير الزهو والخيلاء والأنانية ، وهذا ما تعلمناه من التاريخ ، والطاغية دائمًا لا ينتفع من مواهب مرءوسيه وقدراتهم ، ولعل هذا كان عاملاً مهمًا في اضمحلال أسبانيا تحت حكم « **فيليب الثاني** »[١] كما قرأنا ، وقد أثر فيه أبوه تأثيرًا سيئًا ، وعلمه التحكم في مرءوسيه بطريقة متعددة الجوانب بحيث لا يترك لهم فرصة لإبداء وجهة نظر أو رأي يفيد .

فهو يستخدم نبلاء أسبانيا العظام **ـ مثل إلبا ـ**[٢] في البعثات والسفارات الأجنبية والحملات العسكرية وليس أكثر من ذلك . ثم يعتمد في الخدمة والإدارة على أناس من أصل وضيع ويرفعهم إلى أعلى مرتبة ، وبهذا يكون ولاؤهم خالصًا له ، فهم يعزون ما هم فيه من نعمة إلى الملك ، وهم يطيعونه طاعة عمياء محقًا كان أم مخطئًا ، ثم حطمه منهجه الخاطئ وقضى عليه ، فقد زادت الشكوك في نفسه حول مساعديه ، ودفن نفسه تحت أنقاض من الأعمال الفرعية التي لا أهمية لها ولا طائل منها ، فهو لم يعد يثق في أحد من وزرائه ، وكان يظن أنه يستطيع أن يدير إمبراطوريته بنجاح أكثر منهم ، وهذا ما جعله يتخبط في معظم قراراته .

وربما كان التعصب الديني ورغبته في رفع شأن « الكثلكة » وخدمة شعبه من وجهة نظره هي مفتاح شخصيته العجيبة .

ولكن رذائل الخيلاء والغطرسة والأنانية والاستبداد قد غطت كل محاسنه . والوهم والأباطيل من أهم خصائص الطغاة ، وعلى هذا كان الحال مع « **لويس الرابع عشر** »[٣] ملك فرنسا ، فقد بنى قصر « فرساي » وحجب نفسه تمامًا عن جمهور « باريس » ، وأهمل نبلاءه وأشرافه ورجال دولته حتى لم يعد في مكنة واحد منهم أن يتقدم له بطلب أو اقتراح أو رأي .

وكانت الخيلاء هي الصفة الأساسية التي تميزه .

ولعلنا لن نجد أبدًا حُسْنًا أو صلاحًا في نفس أي إنسان قد بلغ مركزًا عظيمًا

من القوة ، وقد أحاطت به مخاطر كثيرة ، وحكمته مركبات النقص في الوقت نفسه .

والنتيجة حتمية ومنطقية دائمًا .

وزراء منحطون سفلة .

فشل في تحقيق الأمن مهما اتخذ من إجراءات .

غياب الحقائق عن الإدارة تمامًا ، ولا يبقى في ذهنها غير الأباطيل .

وعند النظر في المتشابه من التاريخ للطغيان الأوروبي لا يمكن لأي مؤرخ أن يغض البصر عن « نابليون » .

ووجه الشبه بينه وبين زعيم « النازية » عظيم .

فقد أسهب المؤرخون في عرض ميزاته العسكرية وعبقريته البالغة وقريحته المتوقدة ، وأطنبوا في مدحه لقاء الأيادي البيضاء التي أسداها « **قانون نابليون** » لفرنسا وأوروبا .

ثم نظرة إلى المد الهائل الذي تمثل في الفتوحات العسكرية « النابليونية » وما يقابله بالتوازي من مد عسكري « نازي » يحتم الدراسة والمقارنة لهاتين الحقبتين العظيمتين من الطغيان الأوروبي .

ولا تغيب عن بالنا أبدًا صورة « نابليون » وقد ضاعت منه عظمة الانتصار وأبهته ، وبدا لنا ذليلاً منهزمًا ، شأنه في ذلك شأن « هتلر » تمامًا .

ويمتلئ كتاب التاريخ بالدقائق المثيرة لرحلة الهزيمة وانحسار المد وانهيار المجد ، وعودته الذليلة الشهيرة مع « **كونكورت** » إلى فرنسا بعد فشله الذريع في غزو « الروسيا » .

وفي النهاية رأينا صورة مهينة أخرى قد خلت من التكريم والاحترام للقائد الذي سقط وهو يعاني في « **سانت هيلانة** » من محاولة اكتشاف الذات ، لكي يقدمها للتاريخ

عبرة للأجيال التي توالت بعد « نابليون » ، وتتوالى بعد « هتلر » أيضًا .
وهما صنوان للعجرفة والزهو والاستبداد والخيلاء .

إن العظمة التي تمثلت في عبقرية « نابليون » العسكرية ليست كافية لكي ندرك من خلالها مدى مقدرته على السيطرة والتوجيه من أماكن بعيدة لتلك الأحداث الجسام التي جرت في « أسبانيا » مثلاً . فقد استعاض عن الحاجة إلى تقييم الحقائق إلى التردي في قبول ما لا يستساغ منها ، أو ما هو غير مناسب ، وقد تم له ذلك في رؤية واضحة من وجهة نظره ، ولا يعتورها قلق أو اضطراب .

وكل هذه الشواهد رغم سطحيتها في بعض الحالات إلا أنها تؤكد لنا أمرًا أساسيًا واحدًا هو أن العجرفة والأنانية ليستا مجرد علامة الطغيان ودليله ، ولكنهما في الحقيقة جوهر ضعفه وتهافته . وهو أساس الأمل لمن يتخوفون من « الخطر التالي »(*) الذي قد يتهدد الحرية التي ننشدها .

وقد يأتي حين من الزمن يحاول فيه بعض الكتاب والمؤرخين أن يصوروا زعماء « النازية » على أنهم زعماء شهداء ، قد واجهوا الموت بشجاعة وهم يؤمنون بالوطنية الألمانية .

وقد يذهب هؤلاء ــ إن وجدوا ــ إلى أبعد مدى من ذلك بأن يضفوا لونًا من البسالة والعظمة على هؤلاء « النازيين » في سجنهم بعد هزيمتهم ، فيصورروهم قد آمنوا بعظمة منجزات « هتلر » الأولى ، ومن ثم فقد ساروا وراءه في استسلام ويقين .

ومثل هؤلاء الكتاب « الاعتذاريين » ــ إن وجدوا ــ سوف يتعين عليهم أن يواجهوا الحقائق الدامغة الدقيقة التي يحتويها هذا الكتاب .

وإن البيانات التي أدلى بها « ألبرت سبير » وزير التسليح النازي في المحاكمة ينبغي أن توضع جنبًا إلى جنب في الصراع الأخلاقي وتباين الإرادات بين الزعماء المسجونين .

(*) لعله يقصد الشيوعية والاتحاد السوفييتي بعد الحرب .

وهنا نضع مقولتين لفرانك (حاكم بولندا العسكري) أثناء محاكمته :

ــ « لقد أحاط « هتلر » نفسه بحاشية حقيرة من المتملقين والجهلة الذين لا يملكون القدرة على الاعتراض ، ولا يجيدون غير التصفيق ، ليضفي على نفسه هالة من القوة والمجد الزائفين » .

والثانية قوله بإخلاص :

ــ « ألف عام سوف تمر دون أن يمحى جرم ألمانيا » .

دافيد ماكسويل فايف

لندن سنة ١٩٤٨